الأبعاد الإستراتيجية للعدوان الإمبريالي على لبنان

عبد الصمد بلكبير

التناقضُ الرئيسي في عالمنا وخصوصيةُ منطقتنا

منهجيّاً، يجب ألا تَشْغلَنا الوقائعُ اليومية الطارئة عن التفكير في ما هو استراتيجيّ. ذلك لأنّ انفجار اليوم أو الغد ليس سوى وقائع لا يُمْكن أن تمتلك دلالاتِها الخاصةَ من ذاتها، بل أساسًا من موقعها في المكان والزمان التاريخي ـ وهو موقعٌ تَحْكمه قوانينُ عامةٌ ذاتُ طبيعةٍ استراتيجيةٍ وتاريخيةٍ وجغرافية ـ سياسية.

إنّ الطابع الرئيس للتناقض، ومن ثمة للصراع، في عالمنا المعاصر، لازال هو هو، بالرغم من التغيُّر الجزئي في مكوِّناته أو مظاهر تعبيره. فما زالت معالمه الرئيسية تتلخّص في ما يلي:

أ ـ بقاء التناقض بين الرأسمال والعمل، أو هو، من جهة، تناقضٌ بين الشركات المتعدِّدة والمتعدِّية الجنسيات وإداراتِ دولِها الاستعمارية غالبًا، وبين الطبقة العاملة في بلدانها الأصلية وبقيةِ الدولِ المستضعفة في الجنوب من جهة ثانية.

ب ـ لقد عمدتْ رأسماليةُ المراكز الإمبريالية إلى مضاعفة التركيز على الفائض الاقتصادي الناتج عن علاقة النهب والاستغلال الممارسيْن على شعوب الجنوب المستضعَفة وبذلك تحوّلتْ إداراتُ الدول الغربية إلى أداة رئيسية لتوفير شروط ذلك: ١ ـ بسياسات القروض الربوية المجحفة والمفسِدة لإدارات دول المستعمَرات وقيمِها وتقاليدِها. ٢ ـ بالعلاقات التجارية الدولية الظالمة وبالتبادل غير المتكافئ للسلع وللخدمات ٣ ـ بالتدخُّلات الصريحة والسافرة السياسية، وحتى العسكرية عند الحاجة، في تقرير وتوجيه السياسات العمومية لإدارات الدول التابعة. ٤ ـ بتخريب اقتصاديات مجتمعات الجنوب وثقافاتها، عبر اصطناع الحروب الأهلية أو الأزمات الاقتصادية والمالية، من خلال نهب ثرواتها الطبيعية (البترول خاصة) والدفعِ إلى هجرة الأدمغة.

من أهمّ أدوات الصراع حرمانُ الخصم من أسلحته أو فلُّها بين يديه. وهذا ما يحدث اليومَ في مظاهر عدّة يُعتبر من بين أهمها:

١ ـ إبرازُ البعد الهوياتي أو الثقافي أو الإيديولوجي على حسابِ ما هو من طبيعةٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ (كالاستغلال والسيطرة والنهب)

٢ ـ خلطُ العلاقات، بل وإفسادُها، بين المعركتيْن الوطنية التحريرية ومعركة الديموقراطية. فهاتان متداخلتان ومتزامنتان اليوم، غير أنّ إستراتجيتيْهما مختلفتان.

٣ ـ اصطناع التنافرات بين مكوِّنات الأمة، ولاسيّما بين تيّاراتها الرئيسية: أ ـ الوطنية القومية التحرُّرية. ب ـ الاشتراكية الديموقراطية. ج ـ التيّار الهويّاتي، وعلى رأسه التيارُ الإسلامي التحرري. والحال أنّ العجز عن الجمع التوحيدي، الذي لا يكون على حساب حقّ كلّ تيار في استقلاليته الفكرية، هو اليومَ المسؤولُ الأولُ عن العجز العام في الصراع الوطني القومي ـ التحرري.

ما حدث في لبنان، وما يحدث في عموم الوطن العربي والعالم الإسلامي، هو جزءٌ من كلّ فقط. وإلاّ فإنّ الحروب والتخريب قائمة في العالم، ولكنْ بصمت في الغالب وسببُ ذلك في اعتقادنا ما يلي أ ـ الموقع الجغرافي السياسي لمنطقتنا؛ إنّها صرّةُ العالم، أو قلبُه، كما كان يُقال ب ـ تمركزُ البترول في هذه المنطقة بالذات، وهو ما هو بالنسبة لاقتصاديات وأنماط الحياة المعاصرة. ج ـ البعدُ الثقافي للصراع، وخصوصيةُ مواطني هذه المنطقة لجهة ذاكرتهم وتاريخهم العريق والمتميز، الأمرُ الذي يحصِّنهم ويسلِّحهم بشروط المقاومة؛ وهذا ما قد لا تجده الإمبرياليةُ في مناطق أخرى من العالم بهذه الحدّة.

لنتذكّرْ دائمًا أنّ الجغرافية السياسية للوطن العربي منتوجٌ استعماريٌّ أساسًا. ومن ثم فإنّ الذي أنتج إسرائيلَ، بوصفها كيانًا ذا وظيفةٍ واضحةٍ وسافرة، هو نفسُه الذي اصطنع لبنانَ لوظيفةٍ أخرى مكمّلةٍ ومتمِّمةٍ للاستراتيجية ذاتها. والحُكم نفسُه ينسحب على بقية الكيانات، إيجابًا أو سلبًا. وقد كان الهدفَ الأول من كلّ هذا هو التجزيءُ القُطْري، ومنعُ قيام الدولة القومية التي بدونها لا حرية ولا استقلال ولا تنمية ولا

الأبعاد الإستراتيجية للعدوان الإمبريالي على لبنان

ديموقراطية. أما الهدف الثاني فيتجلّى في أنّه عندما يتعذّر التجزيءُ يتمّ الاعتمادُ على اصطناع كياناتٍ صغرى ضعيفةٍ توضَع إلى جوار بلدٍ يَمْلك الحدَّ الأدنى من مقوّمات الحياة والصمود (لا التقدُّم) وهكذا اصطُنِعتْ للسعودية دولةُ قطر والبحرين، وللعراق الكويتُ، ولسوريا لبنانُ والأردنُ، ولمصر السودانُ، وللمغرب موريطانيا و«الصحراءُ الغربية،» أما إسرائيل فاصطُنِعتْ للجميع!

في لبنان تلتقي التناقضاتُ وتحتدم الصراعاتُ بين الأطراف جميعها في المنطقة وخارجها، وبخاصةٍ الإمبرياليتان الأميركية والأوروبية (بقيادة فرنسا) من جهة، وغريماهما الرئيسان في المنطقة: سوريا ولبنان. وعندما عجزت الإمبرياليتان عن معالجة تناقضاتهما داخل لبنان من جهة، وبينهما وبين إسرائيل من جهة أخرى، فُرِضَ إضعافُ «الدولة» اللبنانية. وأدّى ذلك إلى ازدياد قوة المجتمع (خاصةً حزبُ الله) وتطابقِه مع استراتيجيةٍ جهويةٍ مناضلة تحررية شكّلها التحالفُ العربي (السوري) الإيراني. فنَتجتْ، لأول مرة، ثغرةٌ في الجدار الاستعماري، سيكون مآلَها الاتساعُ والانفتاحُ التدريجي لتحوُّلِ بقيةِ المناطق من توظيفها الاستعماري الذي أنشئتْ من أجله إلى وظيفةٍ أخرى مضادةٍ ومقاومةٍ وتحرُّرية.

إنّ المصير الحتمي لإدارات بقية الدول في المنطقة هو هذا النمط اللبناني بالذات فآليّاتُ العولمة ومنطقُها وقوانينُها تتجه صوب هذه الوجهة بالنسبة إلى جميع الدول، وخاصة التابعة وغير المقاومة. ذلك أنّ انفتاح الأسواق سيؤدّي حتمًا إلى انهيار الاقتصاديات الضعيفة. وسياسات العولمة ستحوّل جيوشَ الدول التابعة إلى شرطةِ أمنٍ داخلي لا تستطيع أن تحمي حدودًا لم يعد لها أصلاً وجود. كما ستصدِّر أزمات المراكز نحو أطرافها الجنوبية خاصةً، بما في ذلك الأزماتُ الثقافيةُ والسلوكية. . إلخ.

إنّ جميع هذه الأمور وغيرها تدلّ اليومَ على أنّه لا ملجأ للمجتمعات المستضعفة سوى نفسها. أما إدارات دولها فهي بصدد التخلّي عن مهامّها الأصلية تدريجيّاً باتّجاه تحمُّل مهامّ حارس المصالح الإمبريالية

إنّ نمط حزب الله هو في الغالب نموذجٌ سيتّسع تعميمُه إذا استمرت الأحوالُ والشروطُ كما هي، وذلك استهدافًا من قِبل المجتمعات لحماية ذاتها (ومثالُ ذلك حالةُ الصومال الذي تُرِك لمواجهة فنائه، فانتفض مستخدمًا منطقَ ووسائلَ حزب الله لإنقاذ أرضٍ بل وحياةِ شعبٍ ينقاد نحو نهايته). ولا شكّ في أنّ ثمة مكتسباتٍ ودروسًا عديدةً في معركة العدوان الأخيرة، أهمُّها في تقديري:

ـ بدايةُ استرجاع ثقة الجماهير العربية بنفسها وبطاقاتها وبقدرتها على النهوض اعتمادًا على إمكانياتها الذاتية ـ بل ومن دون الحاجة إلى «دولها.»

ـ سقوطُ أقنعةٍ وتحطُّمُ أصنامٍ عديدة وأهمُّ ذلك أنّ الرأسمالية (الأميركية خاصةً) ليست بالقوة التي لا تُقْهر، بل على العكس، فإنّها تحمل أعطابًا وتناقضاتٍ عدّة.

ـ بدءُ العدّ العكسي لوظيفة إسرائيل الاستراتيجية في المنطقة. فبعد العجز السابق عن توظيف أميركا لإسرائيل في العراق واضطرارِ أميركا إلى التدخُّل المباشر هناك، ها هي إسرائيل تُثْبت عجزَها عن الضبط والتحكُّم في بلدٍ جارٍ ضعيف، وانتهت إلى الأبد خرافةُ التفوق الإسرائيلي، وتبيَّن أنّ قوة الإسرائيليين وانتصاراتهم السابقة لم تكن سوى الوجه الآخر لعجز الأنظمة ولسيطرةِ الأساطير والأوهام على نفسيةِ طبقاتها السائدة.

ـ إنّ مواجهة الاستراتيجية الاستعمارية لا يمكن أن تكون ناجعةً باستخدام أسلحتها ومنطقها، بل عن طريق استراتيجية تعتمد العلمَ والابتكارَ التقني وتنظيمَ الشعب والاعتمادَ عليه وتعبئته.

ـ إنّ معالجة التناقضات الاجتماعية ـ السياسية الداخلية لا تتمّ إلاّ بتصديرها نحو العدوّ الخارجي، أيْ نحو صانعها في النظام

غابرييلا بوليسوڤا

عائلة في صريفا

الرأسمالي الدولي، وبالتالي تحويلها إلى عنصرٍ محفِّزٍ على المقاومة من أجل التحرُّر والاستقلال. عندئذ فقط تأخذ آلياتُ الديموقراطية مواقعَها ووظائفَها في معركة التحرر الوطني والاستقلال الاقتصادي ـ الاجتماعي والعلمي والثقافي الأولوية، إذن، هي للتحرُّر وللوحدة. وعلى الحريات وحقوقِ الإنسان والديموقراطيةِ أن تشتغل وتوظَّفَ لخدمة ذلك الهدف لا غيره

هذه المعركة المجيدة هي، كسابقاتها ولواحقها، جزءٌ من حرب شاملة تَصْرفها الإمبرياليةُ بشتّى الإخراجات والأساليب ضدّاً على شعوب الأرض جميعًا ـ وفي المقدمة منها اليوم شعوبُنا العربية. وتواجهها مقاوماتٌ شاملةٌ شعبية أساسًا، تُستعمل فيها الأسلحةُ الصامتة الخفية والباردة، وأخطرُها هو من طبيعة ثقافية ـ دينية لحفظ الحياة أولاً ولحفظ الوجود عن طريق التضامن وعن طريق بناء أُسَرٍ هي أقربُ إلى خلايا للمقاومة ومن الأطراف المقاومة أيضًا العديدُ من التنظيمات المدنية السياسية والنقابية والحقوقية والنسائية والشبابية والدينية المكافحة بجميع الوسائل والسبل، بما في ذلك العسكرية، وخاصةً في فلسطين والعراق والصومال. فضلاً عن مقاوماتِ بعضِ إدارات الدول كسوريا وإيران.

لا شيء يدعو إلى اليأس، بل على العكس. ذلك أنّنا أمةٌ متحرِّكةٌ وناهضة وتنتظر التحاقَ الجميع بالمعركة ضدّ العدو نفسه واستهدافًا للأهداف المشتركة عينها: التحرر، الحرية، الديموقراطية، التنمية.. إلخ إنها معركة إما أن تكون إنسانية أو لا تكون.

الدار البيضاء

د. عبد الصمد بلكبير

فاعل سياسي أستاذ جامعي بكلية الآداب، القاضي عيّاض